عبد الحميد بن باديس علم الأمّة الجزائرية ورجل الإصلاح الوطني

دراسة في روافد التأثّر والتأثير

د. عبد الحميد عمروش(أستاذ محاضر ب)

جامعة العربي التبسّي، تبسّة.

Email:abdelhamidamrouche303@gmail.com

الملخّص:

يعدّ عبد الحميد بن باديس من أبرز رموز الجزائر في العصر الحديث، ولذلك ليس بدعا أن نعود بين الفينة والأخرى للبحث في حياة وأعمال هذا الرمز، فشخصيته تجمع في طيّاتها جوانب بلغت من التنوّع والغنى مبلغا يجعل في قدرة الباحث – دوما– أن يتطرّق إلى دراستها، فقد كان ابن باديس مصلحا، ومفسّرا، تأثّر وأثّر كثيرا في تاريخ الجزائر الحديث. لذا تنهض هذه الدراسة للبحث في شخصيته العلمية والعملية، وفي روافد تأثّره وتأثيره، من مصادر متنوّعة ونادرة.

الكلمات المفاتيح: عبد الحميد بن باديس؛ الأمّة الجزائرية؛ الإصلاح الوطني؛ التأثّر؛ التأثير.

Abstract :

Abdel Hamid IBenBadis is one of the most prominent symbols of Algeria in the modern era, so it is not a mistake to come back from time to time to research the life and work of this symbol, his personality brings together aspects of diversity and wealth amount makes the researcher - always - IBenBadis was a reformer, an interpreter, influenced and greatly influenced in the history of modern Algeria. Therefore, this study aims to research his scientific and practical personality, and in the

tributaries of hisAffected and his influence from a variety and rare sources.
Keywords: AbdelhamidIBenBadis; Algerian Nation; National Reform;Affected; Influence.

Résumé:

Abdel Hamid IBenBadis est l'un des symboles les plus marquants de l'Algérie à l'époque moderne, donc ce n'est pas une erreur de revenir de temps en temps pour rechercher la vie et l'oeuvre de ce symbole, sa personnalité rassemble des aspects de diversité et de richesse. Son étude, IBenBadis était un réformateur, interprète,Affecté et influencé grandement dans l'histoire de l'Algérie moderne. Par conséquent, cette étude vise à rechercher sa personnalité scientifique et pratique, et dans les affluents de sonAffecté et son influence à partir d'une variété et rare sources.

Mots-clés: Abdelhamid IBenBadis; Nation algérienne; Réforme nationale;Affecté;Effet.

عندما يُذكر عبد الحميد بن باديس، يُذكر تاريخ أمّة بأكمله، شديدا ومؤلما في تاريخ الجزائر الحديث، وهو حلقة بارزة من حلقات التاريخ الإسلامي الحديث، وكان من أبرزها في العصر الحديث تلك الحركة الإصلاحية التي ظهرت في الشرق، وكانت حركة ابن باديس الإصلاحية إحدى هذه الحلقات.

عبد الحميد ابن باديس مولده ونسبه

ولد عبد الحميد بن محمّد المصطفى بن مكّي بن باديس في الحادي والعشرين من ربيع الآخر، سنة 1308هـ الموافق للرابع من شهر ديسمبر 1889 ميلاديّة،في مدينة قسنطينة، وكان والده عضوا بالمجلس الجزائري الأعلى، وعرف بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين، وكان ممّن يحسن مجاملة الحكّام الفرنسيين واصطناعهم؛ حتى يجعلهم يخفّفون من ضغطهم ومراقبتهم الشديدة على الأهالي المسلمين في قسنطينة،

ولا سيّما عائلته[2]. ويرى بعض الباحثين أن المكانة المرموقة لوالده هي من موالاته لفرنسا، والواقع أن هذه المكانة هي ميراث اجتماعي واقتصادي قديم[3].

ووالدته هي السيّدة (زهيرة بن جلول) بنت علي بن جلول، من أسرة مشهورة في قسنطينة هي أسرة عبد الجليل، وعائلة (ابن جلول) من قبيلة (بني معاف) انتقل أحد أفرادها إلى قسنطينة في عهد الأتراك العثمانيين، وهناك تزوّج أميرة تركية هي جدّة الأسرة ابن جلول، التي توجد في قسنطينة، ولذلك تزوّج منها محمد بن مصطفى بن باديس، وذلك على عادة العائلات الثريّة التي لا تتزوج إلا من الأسر المعروفة مثلها[4]. وهناك من يرى أن ليس لابن باديس خؤولة تركية من جهة أسرة آل جلول[5].

وابن باديس سليل عائلة كبيرة في الجزائر، والمغرب العربي الإسلامي كلّه – منذ أمد بعيد– حيث تولّى أفراد منها السلطة فيه، بعد انتقال مقرّ الخلافة الفاطمية من القيروان إلى القاهرة في القرن الرابع الهجري، فقد أسند الخليفة الفاطمي (المعزّ لدين

---

[2]– ينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 72/01. وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، 136/02. وتركي رابح عمامرة، من أعلام الإصلاح والتربية في الجزائر، الشيخ عبد الحميد ابن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة الهداية، تونس، السنة: 31، عدد: 173، ديسمبر 2006/أفريل، 2007، ص20. ومحمد صالح بن رمضان، نشأة ابن باديس، مجلة أفريقيا الشمالية، الجزائر، السنة الأولى، عدد: 4، 1949، ص43. وعبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (د، ط) 2005، ص185، 189.

[3] – ينظر: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، 197/02. ومحمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط01، 2012، ص9.

[4]– ينظر: عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، ص189.

[5]– ينظر: مازن صلاح حامد مطبّقاني، عبد الحميد ابن باديس العالم الربّاني والزعيم السياسي، دار عالم الأفكار، الجزائر، 2011، ص27.

الله) السلطة على أفريقية والمغرب الأوسط (الجزائر) إلى الجدّ الأوّل لأسرة ابن باديس؛ هو الأمير (بلكين بن زيري بن مناد) وهو من قبيلة صنهاجة الأمازيغية. ومن أسلافه المتأخّرين قاضي قسنطينة الشهير أبو العبّاس احميدة ابن باديس (ت969هـ). وفي العهد العثماني برزت عدّة شخصيات ومنها (أبو الحسن علي بن باديس) الذي اشتهر في مجال الشعر و الأدب الصوفي[6].

ومن تلك الأسر العريقة انحدر عبد الحميد ابن باديس، وفي هذا البيت نشأ وترعرع، وقد كان والده يحبّه حبّا كبيرا، ويتوسّم فيه النباهة والنبوغ، وهو الذي سهر على تربيته وتوجيهه التوجيه الذي يتلاءم مع فطرته، ومع تطلّعات العائلة، كما كان الابن من جهته يجلّ أباه ويقدّره[7] ويبرّه.

ابن باديس نشأته وتحصيله العلمي

لزم ابن باديس القراءة والكتابة في منزل والده،فقرأ القرآن الكريم على يد الشيخ (محمّد المدّاسي)، وأتمّ حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدّة إعجاب المؤدّب بحدّة ذكائه واستقامة خلقه، وسيرته الطيّبة وأخلاقه العالية، قدّمه ليصلّي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير[8].

وفي سنة 1903م اختار ابن باديس طريق العلم، وبدأبدراسة مبادئ العربية والمعارف والإسلامية على علماء أفاضل، كان أشهرهم وأعظمهم أثرا في نفسه الشيخ (أحمد أبو حمدان لونيسي) الذي وجّهه وجهة علمية أخلاقية بجامع (سيدي محمد النجار) بقسنطينة. ولمّا بلغ الخامسة عشر من عمره زوّجه والده من ابنة عمّه

---

[6] – ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، 136/02. وينظر: عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، ص 186.

[7]– عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، دار الأمّة، الجزائر، (د، ط) 2012، ص32.

[8] – ينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 74/01.

وأنجب منها ولدا سمّاه (عبده إسماعيل) غير أن العلاقة الزوجية لم تدم طويلا وانتهت بالطلاق[9].

عوامل التأثّر في شخصية ابن باديس

كثير ممّن كتب عن ابن باديس، من تراجم مستفيضة عن حياته الشخصية، والغنية بالعبر والمثل والقيم، وغايتنا هو وضع أيدينا على عوامل النبوغ والعبقرية في شخصه، مشيرين إلى عوامل تكوين شخصيته، وإلى درجات التطور والتقدّم التي حدثت في مراحل حياته، ونحن في كل هذا نستفيد مما كتبه الشيخ عن نفسه، وما كتبه عنه تلامذته، وما كتبه الباحثون، وقبل هذا وذاك فنحن نحتكم إلى أعماله التي بين أيدينا، وإلى عصر الشيخ الحافل بالأحداث الفكرية والعملية، وبهذا فإننا نضيف عوامل نراها مفيدة، حدّدت وبدرجة مهمّة مسار حياة الأستاذ الإمام عبد الحميد ابن باديس. وأما عوامل تكوين شخصيته فإنها تتسلسل مع تطور حياته نفسها، ومن أبرزها:

أوّلا: فترة الصبا التي لم يُترك فيها ابن باديس للظروف وحدها لتتولّى تنشئته، وإنما كفلته عائلته، وخصوصا والده الذي أحضر له خيرة المربّين لتعليمه وتثقيفه، ولا يخفى ما لتأثير الأسرة في شخصية الطفل من أهمية بالغة، وما لتأثير المعلم والمربّي على حياة الناشئة، وكذا إلى التّماسّ المباشر مع المستعمر، في أسرته حينا، وفي واقعه أحيانا. ويرى ابن باديس أن "البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق"[10].

ويقرّ –ضمنا– وهو يتحدّث عن شخصية (محمد رشيد رضا) والاعتبار بحياته، أن البيت هو المدرسة الأولى لتنشئة الرجال، وفي هذا يقول –منوّها بالدور الذي يجب أن يلعبه المعلّم تجاه تلامذته، وأثر ذلك عليهم–: "ويتخرّج التلاميذ في العلوم والفنون، ولكن بدون تلك الروح الخاصّة التي ينفخها المعلّم في تلميذه...فعلى المعلّم الذي يريد أن يكوّن من تلامذته رجالا، أن يشعرهم – واحدا واحدا– أنه متّصل بكل

[9]– ينظر: عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر، ص190.

[10] – ينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 04/201-202.

واحد منهم اتّصالا خاصا...حتى يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم، في كفالة أب روحي يعطف عليه"[11]. وهي إشارة خاصّة إلى تربيته الخاصّة.

ثانيا: بيئة الدراسة وتأثير المربين من المعلّمين والشيوخ، الذين لم يقدّموا له مبادئ العلم والمعرفة بطريق التعليم المعهود فحسب، بل – وهذا هو المهم– قد نمّوا استعداده، وخطّوا له مناهج العمل في الحياة، وهذا ما يدركه ويذكره في شيخين من شيوخه،أوّلهما: (حمدان لونيسي) الذي بذر البذرة الأولى وتعهّدها بالرعاية، وغرس في نفسه مبدأ العلم لأجل العلم، ولأجل الوطن[12]، وهذه نصيحة لها تبعات في ترسيخ قيمة الحرية في نفوس الناس، والتجرّد للمبدأ وللوطن، وهي قيمة كبيرة في منهج الحياة.وثانيهما:الدور الذي لعبه الشيخ (محمد النخلي القيرواني) الذي قدّم له رؤية ثاقبة، وفتح له آفاقا واعدة إلى إعمال الرأي، وخلّصه ممّا كان ينتابه من الضجر والقلق، جراء أساليب المفسّرين وتأويلاتهم، واختلافهم فيما لا اختلاف فيه من كتاب الله[13]، وهذه قيمة كبيرة في منهج العلم.

ثالثا: الحركة الإصلاحية في الشرق، والتي–لا شك– قد تأثّر بها ابن باديس، وهو تأثير غير مباشر عن طريق المجلّات والجرائد التي كانت ترد من الشرق، والتي كانت تدخل الجزائر خفية وعلنا، وتحمل في ثناياها مبادئ الدعوة الإصلاحية التي أطلقها (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) ثم (محمد رشيد رضا)، مثل جريدة: العروة الوثقى، والمؤيّد، واللواء، والمنار...وغيرها.

وعلى الرغم من تشديد الرقابة على هذا النوع من الصحف؛ إلاّ أنها كانت تدخل بطرق شتّى مع الحجّاج أو الطلاب الذين ينتقلون بين مصر والجزائر، أو بين تونس والجزائر[14]. ويذكر الشيخ رشيد رضا في كتابه (تاريخ الإمام محمد عبده) أن الإمام

---

[11] – المرجع السابق، 04/201-202

[12] – ينظر: المرجع نفسه،01/77.

[13] – ينظر: المرجع نفسه،01/78.

[14] – ينظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من1847 إلى 1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص12.

محمّد عبده عندما زار الجزائر وتونس في صيف عام 1903م، عهد إليه بعض الفضلاء أن يوصي صاحب (المنار) بألّا يذكر دولة فرنسا بما يسوؤها لئلّا تمنع (المنار) من الجزائر"[15].

رابعا: الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من أصول الكمال، واستعدادات عظيمة للخير حيث "الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء، إذا واتتها الظروف"[16]. وابن باديس يصف الأمة الجزائرية بأنها أمّة ذات نسب عريق في المحامد والفضائل.

وعوامل أخرى متعدّدة كالحراك الثقافي والعلمي في الجزائر وفي تونس قبل ابن باديس ومعه، وشخصية ابن باديس وعبقريته، وحرّيته وشجاعته، وعلاقته المتينة مع زملائه من العلماء الأفاضل، وأبرزها جميعا هي تلك العلاقة الوثيقة مع القرآن الكريم.

رحلة عبد الحميد ابن باديس إلى تونس

في سنة 1908م سافر ابن باديس إلى مدينة تونس للدراسة بجامع الزيتونة الشهير، وفي رحاب الجامع الأعظم تفتّح عقله وذهنه على آفاق واسعة من الثقافة الإسلامية، واطّلع على عدد كبير من المصادر المهمّة في الدراسات العربية والإسلامية والثقافية، التي لم تتح له في مسقط رأسه قسنطينة[17]، حتى حصل خلال سنوات معدودات على زاد وافر من المعارف المتنوّعة، وعلى قدر من اللغة والأدب العربي بشتى فنونه، وهكذا أحرز شهادة التطويع سنة 1911م. وقد نشرت جريدة المشير التونسية في 6 أوت 1911م، قائمة الناجحين في شهادة التطويع، ويذكر الشيخ محمود شمّام أنه لما توفي الشيخ (محمود ابن الخوجة) رئيس النظارة العلمية، وخلفه الشيخ (أحمد بيرم) كان هذا الأخير يعرف ما يقع من تساهل في منح الشهادة، وهو

---

[15] – ينظر: تركي رابح، ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مجلّة الأصالة، الجزائر، السنة: 04، عدد: 24، مارس/أفريل، 1975، ص78.

[16] – المرجع نفسه، 152/04

[17]– ينظر: تركي رابح، من أعلام الإصلاح والتربية في الجزائر، الشيخ عبد الحميد ابن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص21.

أمر من شأنه أن يحطّ من مستوى التحصيل العلمي، فابتدأ بالسعي لرفع مستوى خرّيجي هذا المعهد المتحصّلين على شهادة التطويع، أي شهادة ختم الدروس التي تؤهّل حاملها لأن ينتصب للتدريس، ولأن يكون عدل إشهاد من عدول التوثيق والإشهاد[18].وقد شارك في هذا الامتحان ستون طالبا، نجح منهم اثنا عشر، وكان أوّل الناجحين هو عبد الحميد ابن باديس، وبسبب صعوبة الامتحان الذي تعمّده الرئيس الجديد لمجلس النظارة العلمية (أحمد بيرم) -رفعا لمستوى شهادة التطويع- لم ينجح في هذه الدورة طلبة أصبح لهم شأن بعد ذلك في الإدارة والتعليم والقضاء[19]، وهكذا تتبدّى لنا بوثوق أولى سمات التفوّق والنبوغ في شخصيته المعرفية والعلمية.

وفي رحاب جامع الزيتونة أقام ابن باديس أربع سنوات دراسية متواصلة، امتدّت من سنة 1908م حتى سنة 1912م، حيث حصل في نهاية السنة الدراسية (1911-1912م) على شهادة التطويع، وعمره آنذاك ثلاث وعشرون سنة، ثم قضى سنة رابعة أخرى في الجامع الأعظم للتدريس فيه، كما هي عادة المتخرّجين في ذلك العهد.وتجلّى نبوغه في أنه استطاع اختصار مراحل الدراسة التي تستلزم سبع سنوات كاملة -حسب البرامج المقرّرة- إلى ثلاث سنوات فحسب؛ وهكذا توّجت دراسته بحصوله على شهادة التطويع، وأما الإشارات الواردة في بعض خطبه وكتاباته إلى حصوله على (شهادة العالمية) فإنما كان يعني بها شهادة التطويع، إذ من المعلوم أن شهادة العالمية المذكورة كانت قد أسندت إليه في مصر، وهي شهادة لم تكن قد استحدثت بعد في مناهج التعليم في الزيتونية[20].

---

[18] – ينظر: أنس الشابّي، زملاء ابن باديس، مجلّة الهداية، تونس، السنة: 28، عدد: 54، مارس/أفريل، 2003، ص59.

[19] – ينظر: مجلة الهداية، تونس، عدد: 150، جوان/أوت 2002، ص61-62. والهداية، السنة: 28، عدد: 154، مارس/أفريل، 2003، ص28.

[20] – ينظر: محمد صالح الجابري، العلاّمة عبد الحميد ابن باديس في تونس، مجلّة الفكر، تونس، السنة: 26، عدد: 3، ديسمبر 1980، ص 51، 53.

ويذكر ابن باديس خلال دراسته في الزيتونة موقفا كان له أثر كبير في حياته العلمية؛ ذلك أنه كان متبرّما من أساليب المفسّرين وتأويلاتهم الجدلية، واختلافهم فيما لا اختلاف فيه، وكان لا يزال على ذهنه – كما يذكر– بقية غشاوة من التقليد، فذاكر ذلك لشيخه (محمد النخلي) فيما يجده من التبرّم والقلق، فقال له: "اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقّدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح، وتستريح...فوالله [يقول ابن باديس] لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها"[21]. وكان لابد لهذه القريحة الوقّادة أن تتفتّق آجلا أو عاجلا، سواء من قبل النخلي أم من غيره، غير أن احترامه الشديد لشيوخه كان قد أبقى عليه بعض الوقت، يقول: "إنني امرؤ جبلت على حب شيوخي وأساتذتي، وعلى احترامهم إلى حدّ بعيد"[22]. ثم كان أن سأل شيخها النخلي بعد ذلك. وهناك في الجامع الكبير تعرّف على كبار العلماء في الزيتونة؛ من أمثال (محمد الصادق النيفر) و(محمد الطاهر ابن عاشور) و(محمد النخلي القيرواني) و(الخضر بن الحسين) الجزائري التونسي، والمفتي (محمد بلحسين النجّار) والمؤرّخ (البشير صفر)،وأخذ عنهم الثقافة العربية الإسلامية، وأساليب البحث في التاريخ، والحياة،والاجتماع. وكان لكل واحد من هؤلاء تأثيره الخاص في جوانب من شخصيته، وكان من الذين تأثّر بهم الشيخ محمد النخلي؛ حيث وجد فيه ميله إلى الاجتهاد واستعمال العقل[23] فيما يقتضيه العقل،ولكن لم تكن هذه العلاقة علاقة تابع بمتبوع؛ فما لبث ابن باديس أن شارك في محاولة إصلاح التعليم بالزيتونة؛ عندما بعث باقتراح إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح، التي شكّلها الباي سنة 1931م[24].

---

[21] – ينظر:عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره،01/ 78.

[22] – البصائر، السنة: الأولى، عدد: 16، الجزائر، 24 أفريل، 1936. وينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 74/03.

[23] – ينظر: عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، ص 34.

[24] – ينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 111/01.

وفي الفترة التي بدأ فيها يتطلّع إلى أفق جديد في مساره المعرفي؛ كانت الزيتونة تواجه تحدّيات كثيرة، ناتجة عن حالة الغليان الفكري، والثقافي، والسياسي، التي كان يعيشها العالم الإسلامي عامّة، والبلاد العربية على وجه الخصوص، وهذا ما أعطى للرجل دفعا جديدا لحياته الفكرية والعلمية.

ويمكن للباحث أن يرصد عددا من العوامل والظواهر التي كانت ذات أثر واضح على الحياة الفكرية والثقافية في تونس، والتي امتدّ أثرها إلى الجامع الأعظم، وعلى ابن باديس نفسه، وعلى كثرتها فإننا نلحظ أن هناك عوامل أسهمت بشكل مباشر في هذا الحراك، وفي البيئة التونسية التي أصبحت طافحة بالحركة، وتتجلّى هذه العوامل في:

أوّلا: المؤسسات التعليمية الجديدة، حيث أنشئت (الصادقية) في تونس سنة (1874م)، وقد تميّز التعليم فيها بين التعليم الأوّلي والثانوي، وإضافة اللغات الأجنبية، والعلوم التجريبية، إلى دراساتها الدينية. ثم أنشئت (الخلدونية) سنة (1896م)، على أسس مشابهة، ولكن بتوجّهها الإسلامي الواضح، حيث عمد دعاة الإصلاح الديني في هذه المؤسسة إلى إضافة العلوم الطبيعية والرياضية إلى الدراسات الدينية، لتصبح أشدّ اتّصالا بالثقافة العصرية، وما يلفت الانتباه لهذه المؤسسة الدينية هو أن من بين أعضائها المؤسّسين جماعة من الزيتونيين أنفسهم، ممّن كانوا يسمّون بأنصار الإصلاح أو النهضة، وفي الفترة نفسها كان الاستعمار يقوم بتأسيس المدارس الفرنسية اللغة، وفتح الباب أمام الجمعيات التبشيرية، وتشجيع التونسيين، وجيرانهم على الانتظام في هذه المدارس، ثم مساعدتهم لاحقا على إكمال تعليمهم في فرنسا، وحصر التوظيف الحكومي بخريجي هذه المدارس وحسب.

ثانيا: هو الحركة الإصلاحية التي أصبح لها في تونس دعاة، بتأثير الحركة التي قام بها في الشرق جمال الدين الأفغاني(1838-1897م) وتلامذته، وكانت ترمي إلى تخليص الفكر الديني – الذي آل إلى الجمود والركود- حتى ينسجم مع مقتضيات العصر، وكان من روّاد هذه الحركة في تونس المؤيدين لحركة الإصلاح، الشيخ سالم بن عمر بوحاجب (1827-1924م) وكان على معرفة بالشيخ محمد عبده

(1849-1905م) والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور تلميذ الشيخ سالم، والشيخ محمد النخلي القيرواني، وهذان الأخيران هما من أساتذة عبد الحميد بن باديس، حيث كان اتّصاله بهما عميقا ومؤثّرا، وهما زعيما النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية، وكانا من أنصار أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الإصلاحية، ويذكر ابن باديس أن الشيوخ الجامدين في الزيتونة كانوا ينفّرونه من الاتّصال بهما، وما لبث أن أتيحت له فرصة الاتّصال بمحمد الطاهر ابن عاشور أولا، ثم بالشيخ محمد النخلي لاحقا، حيث لازمه وتأثّر به[25]. ولا شك أن تلامذة هؤلاء الشيوخ كانوا ممن تأثّروا -ولو بدرجات متفاوتة- بحركة الإصلاح التي أطلقها جمال الدين الأفغاني.

ثالثا: وهو دور الصحافة وتأثيرها في الحياة السياسية والثقافية، وكان تأثير مجلة المنار (1896م) للسيّد (محمد رشيد رضا) كبيرا في تونس، وكانت تهتم بالشأن التونسي وبقضاياه، كما كانت جريدة الحاضرة التونسية (1888م) من الجرائد التي انصبّ اهتمامها حول قضايا الإصلاح، وفي المقابل تأسّست بعد الحاضرة، جريدة (الزهرة) لتكون صوت معارضي الإصلاح، واستمرّ تأسيس المجلّات والصحف، وكان من أكثر الجرائد تأثيرا في المجتمع الزيتوني بخاصّة، وفي الأوساط الفكرية عامّة جريدة (الصواب)، وقد تأسست سنة (1906م)، وتصدر بالعربية، وجريدة التونسي (Le Tunisien)، وقد تأسست سنة (1908م) وتصدر بالفرنسية، وكان من بين المشتركين في تحرير التونسي الشيخ (عبد العزيز الثعالبي)، وأما جريدة الصواب فقد ظل تأثيرها كبيرا على الزيتونيين؛ لأن الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كانا يسندانها، وقد قادت هذه المجلة إدارة الجامع الأعظم إلى مرحلة العمل المنظّم لمباشرة الإصلاحات[26]. وهكذا تأثّرت البيئة التونسية

---

[25] – ينظر: المرجع السابق، 01/ 76-77.

[26] – ينظر: وداد القاضي، أثر التجربة الزيتونية التونسية في فكر عبد الحميد ابن باديس وعمله، مجلّة الفكر العربي، بيروت، لبنان، السنة: 03، عدد: 20، مارس/أفريل، 1981، ص 67، 69.

عموما، والجامع الأعظم خصوصا، بالدور الذي لعبته الصحافة في الحياة الثقافية والفكرية والحضارية لتونس.

رابعا: وهو تأثير تلك الحركة الدعوية والإصلاحية، التي ظهرت في الشرق، وقد بدأها جمال الدين الأفغاني، وأكملها محمّد عبده، وأتمّها محمد رشيد رضا، وتجسّدت في زيارة محمد عبده إلى تونس سنتي (1302هـ/1884م) و (1321هـ/1903م)، ولقد لقي – وفي زيارته الثانية خاصّة– ترحيبا بالغا وكبيرا[27] ومن كبار قادة الفكر والثقافة في تونس، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هو التّماس المباشر مع الاستعمار الفرنسي بكل صوره وأشكاله، حيث دفعت أوضاع المسلمين التونسيين رجال الفكر والإصلاح – بما شاهدوه من تطوّر المستعمر و قوته– إلى الثورة ضد الجمود وضد التخلّف.

هذا كان حال البيئة التونسية عامّة، وحال الزيتونة خاصّة، عندما انتسب إليها ابن باديس، ولا يمكن أبدا – والحال هذه– ألاّ يكون هناك تأثير ما، في فكر وتصوّر عبد الحميد ابن باديس.

الشيخ عبد الحميد ابن باديس ورحلة التفسير

يتحدّث علي مرحوم–أحد تلامذة ابن باديس– عن درس التفسير الذي كان يلقيه ابن باديس في الجامع الأخضر فيقول: "درس التفسير، وهو درس عام، يحضره إلى جانب الطلبة جمهور كبير، ويقع يوميا بعد صلاة العشاء في الجامع الأخضر، ما عدا يوم العطلة الأسبوعية، تدوم حصّة الدرس ساعة واحدة في الغالب، أو تقلّ عنها تارة... ولم يكن يتاح الدوام على حضور هذا الدرس القيّم، إلّا للقلّة"[28].

ومع هذا فقد كان الناس يتسابقون لحضور هذا الدرس، الذي أصبحت له سمعة كبيرة في داخل قسنطينة وخارجها؛ لأنه درس جامع يجد فيه المستمعون كل ما يشغلهم من أمور دينهم ودنياهم، من قضايا الماضي والحاضر والمستقبل، وبدرس التفسير ينتهي

---

[27] – المرجع السابق، ص 67.

[28]– علي مرحوم، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة: 04، عدد: 24، مارس/أفريل، 1975، ص96-97.

اليوم الدراسي الذي يبتدئه الشيخ ابن باديس بعد الفجر، ويكون عندئذ قد قدّم ما يربو على عشرة دروس أو أكثر، وتزيد هذه الدروس في الصيف وفي شهر رمضان المعظّم.

وأما عن أسلوب الشيخ وطريقته في درس التفسير، فقد كان "يستهله بما كان يستهل به النبي صلى الله عليه وسلم خطبه (أمّا بعد فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّد صلى الله عليه و سلم ...) ثم يأخذ في تلاوة الآيات التي يريد تفسيرها من حفظه، وبعد ذلك يشرع في التفسير بلغة عربية فصيحة، وبأسلوب غاية في الوضوح، يركّز فيه على استجلاء المقاصد والعبر، وكثيرا ما ينزل معاني الآي على ما تنطبق عليه من أحوال المجتمعات الإسلامية أو البشرية في العصر الراهن، ويجري المقارنة الملائمة بين الماضي والحاضر"[29]. وكان يسود عادة أثناء الدرس جوّ من الهيبة والخشوع والوقار، إجلالا لكتاب الله عزّ وجلّ أوّلا، وتأثّرا بما كان يبدو عليه الشيخ من سكينة ووقار، ثانيا[30].

وكانت دروسه عامّة، تمتاز بالحيوية والنشاط وروح الجدّ، المشوب بقليل من المرح والدعابة...لذلك كانت دروسه حيّة عامرة، وجذّابة آسرة، تجذب انتباه الطلبة إليها وتشدّهم نحوها، وتحملهم على الإقبال عليها بشغف وحماسة، والحيوية في دروس ابن باديس –زيادة على ما اختصّت به من الفضائل– كانت في شدّة اتّصالها بالحياة أيّا كان نوع الفن، وفي تلك النصائح الثمينة التي كان يزوّد بها تلاميذه، والأخلاق الطيّبة التي يغرسها فيهم، وفي الروح العظيمة التي يوحي بها إليهم فينشؤون على الطموح والتطلّع إلى الجدّ، والاستماتة في سبيل الأمانة التي يحملونها نحو أمّتهم[31].

وكان تفسيره للقرآن الكريم، سعيا جادا ودعوة إلى العلماء إلى الاهتمام بالجانب الدنيوي، الذي أهملوه في العهود المتأخّرة، كما هو دعوة إلى المسلمين إلى الأخذ بأسباب التطوّر والتمدّن؛ التي مكّنت أوربّا من التقدّم، والذي غيّر مجرى الحياة

---

[29]– المرجع السابق، ص97.

[30]– المرجع نفسه، ص97.

[31] – ينظر: عبد القادر فضيل، محمّد الصالح رمضان، إمام الجزائر، ص264.

الإنسانيّة، فقد بيّن للمسلمين من خلال تفسيره للآية القرآنية: ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:20/17]. بيّن لهم أنّهم إذا عادوا إلى التمسّك بما يدعوهم إليه دينهم من الأخذ بأسباب الحياة والعمران والتقدّم، أمكنهم الخروج من دائرة التخلّف، التي أوقعهم فيها كسلهم العقلي، وزهدهم في العلوم التطبيقية، التي تستطيع أن تعيد إليهم المجد الحضاري الذي كان لهم، والقوّة التي بها صنعوا الحضارة في القرون الأولى[32]، فكانت مجالس التذكير كلها دعوة إلى استنهاض الهمم، وإلى بعث الأمّة الجزائرية من جديد، وإلى تفسير جديد للقرآن الكريم في أساليبه وفي معانيه، لا عهد للجزائريين المسلمين به.

وكان الشيخ يقضي نهاره وبعضا من الليل، في إلقاء الدروس والخطب والكتابة، علاوة على تأسيس المدارس، والنوادي، وبناء المساجد الحرّة، وختامها كان درس التفسير. وقد وَهب عبد الحميد ابن باديس للقرآن الكريم جلّ وقته، ومعظم حياته، يتعلّمه ويتدبّره، ويفسّره للناس في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة بالشرق الجزائري، من أجل تنويرهم وتحريرهم من الخرافات والشعوذة –التي نشرها بعض من رجال الطرق الصوفية– وهدايتهم إلى الطريق القويم، بعد أن تشعّبت بهم السبل والاتّجاهات، حتّى أتمّه تفسيرا ودراسة في خمسة وعشرين عاما (من 1913 حتى 1938م).

وكان ينشر بعض تلك الدروس كافتتاحيات لمجلّة (الشهاب) تحت عنوان (مجالس التذكير) بعد صدورها في شهر فبراير عام 1927م، وكان يقوم بتفسير بعض الآيات القرآنية المختارة "يحللّها تحليلا يتّفق والسنن الكونية والعمرانية والبشرية، وإلى ما في خلق هذا الكون من بديع الصنع والإيجاد، ومن براهين القوّة والعظمة والاختصاص بالتحكّم المطلق في هذا الوجود، وقد حرص ابن باديس على أن يكون تفسيره لآيات الذكر الحكيم واضحا كل الوضوح، يشرح ألفاظ الآية، ثم يعرج إلى معناها العام ...ولم يكن يعتسف تأويل آيات الكتاب؛ ليحملها ما لا تحتمل وينطقها بما يريد، و يتجاهل دلالة الآية البيّنة الصريحة، كما أنه لم يكن يغرق في تفاصيل الألفاظ

[32] – المرجع السابق، ص 190.

والحروف والمعاني الجزئية؛ حتى تضيع الحكم والمقاصد، والأصول العامّة التي توحيها هداية القرآن"[33].

ولعبد الحميد ابن باديس – كما يذكر الإبراهيمي– "ذوق خاص في فهم القرآن، كأنّه حاسّة سادسة خصّ بها، يرفده بعدُ الذكاء المشرق، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النافذة، بيان ناصع واطّلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه"[34]. وكل هذا بلغته الفصيحة التي التزمها في دروس التفسير، وأبى أن يتحوّل عنها إلى عاميتهم، على الرغم من ملازمة جميع طبقات الأمة لهذه الدروس[35]. ولم يكن ابن باديس يدوّن تفسيره، إلاّ ما ينشره في افتتاحيات مجلة (الشهاب)، ولم يدوّنها تلاميذه،"ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمّة ذخرا لا يقوّم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخّض لنا ربع قرن، عن تفسير يكون حجّة هذا القرن على القرون الآتية، ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في (الشهاب) باسم (مجالس التذكير) علم أيّ علم ضاع، وأيّ كنز غطّى عليه الإهمال"[36] والنسيان.

وهكذا استمرت دروس التفسير حتى شهر جوان سنة 1938م، حيث تمّ ختم تفسير القرآن الكريم، واحتفلت الجزائر بهذا الختم احتفالا عظيما، واستمرت هذه الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليهـا من يوم الأحـد 13 ربيـع الثانـي من عام 1357هـ، الموافـق

---

[33] – محمد بهي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط01، 1999، ص 85، 166.

[34] – ينظر: محمد الدرّاجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (د،ط) 2012، ص37.

[35] – ينظر: باعزيز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، ط02، 2007، ص 39.

[36] – ينظر: مركز البحوث والدراسات، التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس، الرياض، السعودية، 1435هـ، ص 63-64.

لـ 12جوان 1938م، إلى يوم الثلاثاء 15ربع الثاني 1357هـ، الموافق لـ 14جوان 1938م، في مدينة قسنطينة احتفاء بقيمة القرآن الكريم، وتعبيرا عن أصالة وعمق إسلام المجتمع الجزائري، وجاء هذا الاحتفال – ومن غرائب الأقدار– بعد أشهر قليلة من صدور (قانون 08 مارس 1938م) من قبل وزير داخلية فرنسا؛الذي يقضي بعدّ اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر[37]. وبهذا ردّت الجزائر ردّا مفحما على سياسة الفرنسة التي أراد الاستعمار فرضها عليها.

عبد الحميد ابن باديس وثورة الإصلاح

بدأ عبد الحميد ابن باديس عمله الإصلاحي فرديا، ولكنّه كان يخطّط إلى الانتقال إلى العمل الجماعي المنظّم، ولقاؤه بالإبراهيمي في المدينة المنوّرة، وقضاؤه الليالي والأيام للتخطيط الممنهج للإصلاح في الجزائر، دليل على منزع ابن باديس الجماعي، وإيمانه بضرورة توافر جميع الجهود لخدمة الوطن.

وفي البقاع المقدّسة نصحه الشيخ الهندي بأن يعود إلى الجزائر، ويقوم بالإصلاح ويقارع الجمود والسكون، وهذا ما وعاه مرة أخرى عندما كان قد نصحه شيخه النخلي بأن يحكّم عقله في الترجيح بين الأقوال، ونفرّه من مغبّة التبعية المطلقة لشيخ الزاوية وآرائه، فآل على نفسه أن يكون حرّا، وكان له أن يختار بين أمرين لا مفرّ منهما؛ بين الاستعمار والوطن، بين الزاوية والمسجد، وبين الرضى بالواقع والاستكانة إلى التعبّد والتبتّل، أو الصدع بالحق والدعوة إلى الإصلاح والصبر على مكابدة الصعاب.

لقد رأى ابن باديس واقع الزوايا وثقافة المرابطة، ورأى أثر هذا التنسّك الكاذب، حيث عمّ الجهل، وانتشرت الضلالات والبدع، بمباركة من المستعمر نفسه؛ حيث

---

[37]– ينظر: تركي رابح، الشيخ عبد الحميد ابن باديس أوّل رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص29–30. وعلي مرحوم، حول الذكرى الأربعين لوفاة الإمام عبد الحميد ابن باديس، مجلّة الثقافة، الجزائر، السنة: 10، عدد: 56، مارس/أفريل، 1980، ص 30– 31. وعبد القادر فضيل ومحمّد الصالح رمضان، إمام الجزائر، ص 278.

تولّى من لا علم له ترشيد وتقويم الجماهير العريضة من المسلمين، وكان الاستعمار يدرك –بوعيه وخبرته–دور الزوايا وشيوخ الطرق في قيادة الجماهير، فلم يتردّد لحظة في العمل على ترضيخ هذه المؤسسات الثقافية والدينية الأهلية، وإلحاقها كلّيّا بركابه، وقد كانت غايته واضحة؛ وهي أن يخلق لهذه الجماهير دينا ساكنا عقيما، يكون دوره خدمة الاستعمار، والمنافحة عن وجوده، وتعدّت مخطّطاته إلى المساجد نفسها؛ حيث وضعها تحت وصايته المباشرة، يوظف الأئمة ويختارهم بعناية، ويقيم الرقابة والوصاية عليهم، وهو ما مكنّه من أن يدفع بالمسجد في الاتّجاه نفسه الذي سلكته الزوايا، وهكذا أصبح دور المسجد هو نفسه دور الزاوية، يلتقيان–في كثير من الظواهر– في خدمة المستعمر وتنفيذ مخطّطاته[38].

وهكذا وفي "خاتمة شهور عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف [1343هـ]، برزت جريدة (المنتقد) تحمل فكرة الإصلاح الديني بتنزيه الإسلام عمّا أحدثه فيه المبتدعون، وحرّفه الجاهلون...معلنة أن المسلمين بذلك وحدة تصفو عقائدهم وتزكو نفوسهم، وتستقيم أعمالهم، ويبعثون عن قوّة وبصيرة في الأخذ بأسباب الحياة الراقية، والمدنيّة الطاهرة، مشاركين أمم الدنيا في خدمة الإنسانية، وترقية وتوسيع العمران"[39]. هكذا تصدّى ابن باديس –بحزم– لدعاة التنسّك الكاذب،وحذّر من مغبّة الفهم الخاطئ للدين، يقول: "فاحذر كل (متعيلم) يُزهدك في علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية، ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة...كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك، وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدّنك ورقيّك...احذر من التوحّش فإن المتوحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء...احذر من التعصّب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط"[40]، وهذه رؤية عميقة في فهم الدين والحياة.

---

[38] – ينظر: سليمان عشراتي، عبد الحميد ابن باديس من برزخية القول إلى حضور الفعل، ص175.

[39] – عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 352/04.

[40]– المرجع نفسه، 177/03–178.

ويقول –مبرزا منهجه في الدعوة إلى الإصلاح–: "وأحدثنا تغييرا في أساليب التعليم، وأخذنا نحثّ على تعلّم جميع العلوم باللسان العربي والفرنسي، ونحبّب الناس في فهم القرآن، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر...ونرغّبهم في مطالعة كتب الأقدمين، ومؤلّفات المعاصرين، ومضينا على ما رسمنا من خطّة، وصمدنا إلى ما قصدنا من غاية لتكوين نشء علمي...ورأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامّة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنّة، وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات"[41]. هكذا تجلّى منهج عبد الحميد ابن باديس في الإصلاح، وتميّز أسلوبه وتأثيره في فهم الدين والحياة.

وفاة عبد الحميد ابن باديس

ظلت السلطات الفرنسية تترصّد تحرّكات ابن باديس في كل مكان، لعلّها تأخذ عليه ما يخالف القوانين الفرنسية، فتكون لها بهذا حجّة عليه، غير أن الشيخ كان مدركا جيدا لطبيعة الاستعمار، الذي كان لا يغضّ الطرف عن الأعمال الجليلة التي كان ينهض بها الإمام، وظلت السلطات الفرنسية تخشى من حركته الإصلاحية، حتى قبيل وفاته وهو على فراش المرض، حيث كانت على علم بمرضه، فقد جاء في تقرير الشرطة السرّية، المحفوظات التاريخية لولاية قسنطينة، الصادرة في شهر أفريل سنة 1940م، أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيس جمعية العلماء المصلحين الجزائريين، الذي كانت صحته متدهورة وسيئة للغاية منذ شهور، قد توفي في يوم 16 أفريل بقسنطينة، وشيّعت جنازته في اليوم التالي، في وسط جموع غفيرة تعدّ بالآلاف من سكان المدينة، ومن الذين جاؤوا من مختلف أنحاء القطر[42].

---

[41]– الشهاب، السنة: الأولى، عدد: 3، 1351هـ 1932م، ص01. وينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 27/03.

[42]– ينظر: أبو الصفصاف عبد الكريم، صدى وفاة ابن باديس في التقارير الفرنسية والصحافة الأهلية عام 1940، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة: 8، العدد:68–69، أفريل/ماي، 1979، ص47.

وهكذا سكنت في قسنطينة حركتها الدائبة، واستحالت بموته إلى هدوء شامل، وكان الشيخ قد أصيب بمرض شديد الوطأة، نتج عنه ضعف في الكلى؛ حيث ألزمه الفراش، ولم يستطع الأطباء أن يفعلوا شيئا معه، ويذكر البشير الإبراهيمي أن الشيخ أصيب بسرطان في الأمعاء، كان يحسّ به منذ سنوات، ويمنعه انهماكه في التعليم وخدمة الشعب من التفكير فيه وفي علاجه[43]. ولم يعد الجسم النحيل يحتمل أن يساير النفْس الكبيرة، فقد استمرّ طوال حياته القصيرة يعلّم، ويرشد، ويعظ، ويخطب، ويحرّر، ويتنقّل، ويتعبّد، ويتأمّل، ويحقّق، لم يشفق على نفسه، ولم يبال بصحّته من أجل مبدأ عظيم، وأمّة يسوءه حالها، وهكذا توفي في الساعة الثانية والنصف بعد الزوال من يوم الثلاثاء (8 ربيع الأوّل 1359هـ، الموافق لـ 16أفريل 1940م)[44]، وشيّعت جنازته يوم الأربعاء في موكب مهيب، ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة[45].

وقد حمل الفقيد على أعناق تلامذته إلى مقرّه الأخير، ومشى في موكب الجنازة عدد كبير من النساء اللائي كن يحضرن دروس الشيخ بالجامع الأخضر، وشارك في الجنازة أيضا الجمعيات الكشفية، والفرق الإسلامية، وكل الهيئات التي كان ابن باديس نفسه في حياته يشرف على تأسيسها وتأطيرها خدمة للوطن والأمّة، وكان كثير من شيوخ جمعية العلماء يتقدّمون هذا الموكب المهيب، من أمثال الشيخ العربي التبسّي، والشيخ مبارك الميلي...وغيرهم[46].

---

[43] – ينظر: التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص52. وينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي، 284/05.

[44]– ينظر: محمد الدرّاجي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس السلفية والتجديد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012، ص 27. وينظر: عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 94/01-95. وينظر: التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص52.

[45]– أبو الصفصاف عبد الكريم، صدى وفاة ابن باديس، ص49.

[46]– المرجع نفسه، ص49.

وقد تركت وفاة ابن باديس في الجماهير الجزائرية المسلمة عموما، وفي مدينة قسنطينة خصوصا، حزنا عميقا، وشعورا أليما، وقد تركت وفاته فراغا عميقا، وبخاصّة في أوساط العلماء المصلحين، ولم يكن الحزن والأسى –بموته– قد أصاب الجماهير والمصلحين من أمثاله فحسب، وإنما امتدّ ذلك إلى الطبقة السياسية، وقد ذكرت تقارير الشرطة الفرنسية (أفريل 1940م) أن أعضاء حزب الشعب الذين كانوا يطمحون إلى الاتّحاد مع جمعية العلماء قد اصطدموا بهذا الحدث المروّع، وقد صرّح (مصالي الحاج) بقوله:"إن وفاة هذا الزعيم الروحي تعتبر أكبر كارثة، لا على الإسلام وحده؛ بل على الحزب الوطني أيضا"[47].

وقد اتّهمت إذاعة برلين الألمانية السلطات الفرنسية في الجزائر يوم 09 ماي 1940م –على لسان تقي الدين الهلالي– بأنها المسؤولة على وفاته، وقد ذكرت أنه مات مسموما على أيدي الفرنسيين؛ كما فعلوا بمعظم العلماء الذين ما يزال بعضهم يعاني في السجون، وقد قتلوه كما قتلوا جميع الزعماء من قبله[48]. وقد بثّت إذاعة برلين الألمانية بتاريخ الثامن ماي عام 1940م ثلاث حصص كاملة، إحداها في الساعة الخامسة والنصف بعد العصر، والثانية في الساعة السابعة إلاّ الربع مساء، والثالثة في الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، وذلك بعد أن بلغها خبر وفاة العلاّمة الراحل، تمّ خلالها الاستشهاد بما كتبته الصحيفة الإيطالية اليسارية المسمّاة (الحركة الكولونيالية) التي قدّمت فيه خبر وفاة العلاّمة ابن باديس على أنه مشبوه وغامض؛ حيث قالت: إن ابن باديس هو أحد أكثر الرجال تأثيرا في العالمين العربي والإسلامي، وثائر في وجه الفرنسيين، وقالت إذاعة برلين: إن فرنسا حاولت تمرير وفاة العلاّمة في السرّ والكتمان، بينما كتبت الصحيفة الإيطالية:إن ملامح وجه الشيخ في اليومين الأخيرين قبل وفاته، كانت تؤكّد أنّه مسموم؟ [49].

---

[47]– المرجع السابق، ص51.

[48]– المرجع نفسه، ص52–53.

[49]– ينظر: صحيفة الشروق الجزائرية، عدد: 4717، 24 أفريل، 2015م.

وهكذا وعلى الرغم من موته فإن الإدارة الاستعمارية ظلت تتخوّف من الجيل من العلماء الذين تركهم من بعده، وتتهيّب من قوتهم وتأثيرهم في الجماهير، كما كان تأثير ابن باديس فيهم. وهكذا سكن صوت الحقّ المدوّي في الجزائر، بعد أن عجزت إرادة البشر أن تسكنه في قسنطينة مساء يوم 9 جمادى الثانية 1341هـ، الموافق ليوم 14 ديسمبر 1926م[50]، حين أقدم أحد الجناة على محاولة اغتياله الآثمة، بإيعاز ممّن كان يرى فيه عقبة في طريقه.

وعلى الرغم من تباعد المناسبات، وتبدّل الظروف والأحوال، وتعاقب الأجيال، فإن شخصية ابن باديس ظلت –وستظل– رمزا خالدا، ومعلما من معالم الوطنية والإسلام، وعلى الرغم من تقادم الزمن فلم يزدها إلاّ طرافة وجدّة، حيث إن الواقع الذي عمل على تغييره ما يزال قائما مماثلا في الجزائر، وفي المغرب العربي، وفي العالم الإسلامي بأسره، فالمجموعات التاريخية تسير كلّها وفق قانون وحدة المصير Communaute de destin[51]كما يرى ذلك مالك بن نبي.

[50]– عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، ص 46–47. وينظر: علي مرحوم، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، مجلّة الأصالة، ص 102.

[51]– مالك بن نبي، في الحضارة وفي الإيديولوجيا (نصوص غير معروفة) تر وتع: محمّد بغداد باي، عالم الأفكار، المحمّدية، الجزائر، (د، ط) 2014، ص29.